

من وهي المأساة الفلسطينية :

نكبة العرب في الأندلس

للأستاذ محمود عزت عرفة

—»»»»»—

انقضى أربعمائة وأربع وخمسين سنة على حادث سقوط حصن غرناطة آخر معاقل العرب بالأندلس في أيدي الأسبانيين ، وقد تم ذلك سنة ١٤٩٢ م ؛ فكان خليقاً بنا ومأساة فلسطين تُعَدُّ أن نمالج بإيجاز أسباب تلك المأساة الفاجعة ، وننلِس عللها بين حوادث التاريخ ، ونقف عندها وقفة نخرج منها بغير وعظائم نافعات ، هي الغاية العليا من كل دراسة والمقصود الأسمى من كل تحقيق وتحصيل .

واسنأ نبالغ إذا قلنا إن جحافل العرب حملت معها من أول يوم وطئت فيه أرض الأندلس جرثومة هذا الداء الذي أنهكها واستصغى قواها ، وأدال دولتها بعد ثمانية قرون من الزمان . فقد اجتاحت موسى بن نصير أرض الأندلس عام ٧١١ م حتى بلغ أطرافها الشمالية ؛ وعهد إلى قائده طارق بفتح مدائن (جيلقية) في الشمال الغربي ، بينما اجتاز هو سد جبال البرانس الشامخ وانحدر إلى سهول فرنسا ، معتزماً أن يدلف إلى القسطنطينية من طريق الغرب !!

حلم كان حرياً أن يتحقق لو لم يستيقظ موسى من نشوة على دعوة الوليد بن عبد الملك الذي أهاب به أن يكف عن إيغاله في الغزو وينكفي بمسكركه مغافى إلى أسبانيا ... وما كان له إلا أن يسمع فيطيع . على أنه انصرف وقتذاك إلى المسيحيين المتصمين بأقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة تحت إمرة زعيمهم (بلايو) ؛ وكان يسهل أن يقم أظفارهم وبق البلاد شر مكايدهم وفنهم التي ذرّ قرنها بعد حين ؛ لولا أن هتف به داعي الخليفة حرة أخرى أن يؤوب إليه وطارقا ؛ فترك زمام الأمور في يد عبد العزيز بن موسى وساروا إلى المشرق .

وقد نكب موسى بعد قليل على يد سليمان بن عبد الملك ، واقتيل ابنه عبد العزيز في شوارع إشبيلية بتدبير منه ، ولم يكن

مصير طارق بأفضل من هذا . فقدت الأندلس بموت أولئك كل من كان يفكر في إتمام الفتح على خير وجوهه ، وأتيحت لفلول النهمين فرصة الحياة بعد أن أشفوا على الدمار ، ونهيا لهم أن يجمعوا كيدهم وينتظموا صفوفاً حتى أصبح موطنهم جيلقية مصدر القلاقل ومهب الرياح العاتية التي اجتاحت ملك العرب فيما بعد ، ودكت بنيانهم من القواعد ...

ولم يكن ولاية بني أمية في ضعفهم ليزيدوا الحالة إلا سوءاً ، فقد احتدمت المحسومة على عهدهم بين العرب والبربر ، وبين العرب وأنفسهم من يمانيين ومصريين ؛ وكانت في تسلّم عبد الرحمن الداخل زمام الحكم انتصار لفريق من هؤلاء دون فريق^(١) . وإذا كانت سطوة الحكم الأموي في الأندلس قد قضت على عوامل هذا الخذلان والتفريق ، فإن ما وقر بسببه في النفوس من حزازات كان كفيلاً بتهديد وحدة العرب وتألفهم ، مهيباً بكثير منهم إلى الثورات الجائعة والفتن المبيرة ، مما ظهرت عواقبه الوخيمة في أخريات أيامهم .

بسط العرب ظلال السلام على الجزيرة ، ودفنوا لواء العدل والمساواة في أرجائها ؛ فارتضى سيرتهم كل من عاشرهم من الأسبانيين وانصلت أسبابه بأبائهم . ولكن بقيت هذه الأطراف المستعمية تجيش قلوب أهلها بكراميتهم والحقد عليهم وإعمال المكيدة لهم ، حتى بين جدران قصورهم ، وتحت قباب معابدهم !

فقد ذكروا أنه وُجد على جانب أحد أعمدة المسجد الجامع بقرطبة صورة تمثل المسيح مصلوباً ، كان قد رسمها أحد المسيحيين ممن ناققوا بإظهار الإسلام وطاشوا بين ظهرائي العرب يكيدون لهم ويمالئون عليهم . ولما دخل الأسبانيون قرطبة وكشفوا عن موضع هذه الصورة رسموا أمامها على الجدار المقابل لها وجهاً يمثل هذا المسيحي الذي خطها — فيما زعموا — بأظافر يده^(٢) .

(١) انضم إلى عبد الرحمن الداخل أنصار بني أمية من أهل الشام ، وجند كثير من اليمانيين والبربر ممن كانوا يخطون على الوالي العباسي يوسف بن عبد الرحمن للفهرى الذي انحازت إليه قبائل القصرين طامّة . وانتهزام هذا الأخير اجتمعت السلطة إلى عبد الرحمن الذي أسس ملك بني أمية بالأندلس عام ٧٥٥ م .

(٢) انظر رحلة الأندلس للرحوم محمد ليب البقوني ص ٤١

فكم با ترى عدد من كانوا يعيشون بين المسلمين من أمثال هؤلاء ؟ وما مبلغ بلائهم في تقريب هذه النهاية الفاجعة التي آل إليها أمر العرب بالأندلس ؟ ...

لسنا نستطيع أن ننكر العلاقة بين هذه الحالة وبين سياسة التسامح الديني التي جرى عليها المسلمون في هذه البلاد بين قوم عشت عيونهم عن أضواء حضارتهم ، واسودت قلوبهم بظلام الخفيضة والاضطغان عليهم ...

ونعني بهؤلاء القوم أو تلك الذين اعتصبوا ضد العرب اغبر ما سبب ظاهره دون من تبطنهم من المسيحيين وقاسمهم العيش في دعة وسلام ، فارتشفوا رحيق آدابهم وجنوا ثمار علمهم وحضارتهم ؛ وتبواوا — إلى جانبهم — سنى المناصب ورفع الدرجات مما هيأتهم له مواهبهم وعقريتهم .

• • •

أساء قوم من المسلمين فهم هذا التسامح الديني الذي أمروا به واتسروا إليه ، وأعمتهم بوارق الحياة ورغائب العيش عن تعرف حدوده ، وتبين أغراضه ومرامييه ؛ وشوهت سموات الدنيا ليسهم من صورته الجميلة المشرقة ؛ ونكبت به ضلالات النفوس عن طريق الحق ومنهجه المستقيم .

فلم يكن عجيباً بمقد ذلك أن ترى عملاً^(١) للحكم بن هشام ينهض إلى عاصمة إكس لاشايل عاصمة شارلمان فيستجدي عائلته في خنوع ، ويلتمس منه المعونة على إسقاط ابن أخيه القائم بالأمر ، وكان ذلك عام ٧٩٧ م أي قبل مرور قرن واحد على دخول العرب الأندلس . ولم يكن عجيباً أيضاً أن ترى المستعين حفيد الناصر (١٠٠٩ م) يرسل رسله إلى بلاط سانكو أمير قشتالة ليعينه ضد منافسه المهدي وهو من أحفاد الناصر أيضاً ؛ فيجد رسل المهدي قد سبقوه إلى طلب هذه الدعوة من الأمير ... والأمير يمايل بين الرجلين ويمرغهما على مرآة مطامعه ؛ ثم

(١) ناز على الحكم بن هشام عماد سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن الداخل وسافر عبد الله إلى مقر شارلمان يستجده ، فأمد الفارين بمجنى يقوده ابنه لويس حاكم أكوين ؛ ولكن انتصر الحكم على الجميع ، فاسترد من الأفرنج ما احتلوه من المواقع ، وقتل سليمان في إحدى المارك ، وقبل الملح الذي مره عبد الله ، وأجرى عليه راتباً يتيه . وقد جرت كل هذه الحوادث بين عامي ٧٩٧ م و ٨٠٢ م .

ينتهي إلى رفض معونة المهدي والإقبال على نصرة المستعين ... إلى أمثلة من مثل ذلك كثيرة نحيل فيها إلى مظانها من مصادر التاريخ . ولقد أحسن ملوك أسبانيا استغلال هذه الفرص المواتح ، فزادوا نار الفتن بين المسلمين استماراً ، وأذاقوا بعضهم بأس بعض ؛ وراحوا يقتصون من أطراف بلادهم ويفرضون الجزية على المستضعفين منهم ، استغرافاً لثرونتهم ، وغلا لأيديهم عن كل ما يمد لهم سبيل القوة . وأخيراً أعلنوا ضد الجميع حرباً صليبية لا هوادة فيها ... في وقت كان المسلمون فيه قد فقدوا صفاتهم الأولى من التخشين وسمو البدأ ، والتجسس للدفاع ، وشدة الرغبة في الجهاد . فكان تخاذلهم عن صيانة ملكهم عظيماً ، ونهاقت ملوكهم التناذين على استرضاء ملوك النصارى المتربصين بهم بالغا غاية . حتى لقد كان من مخزيات ما حدث في أواخر القرن الحادى عشر أن اكتسح الملك الفونس السادس أقاليم الأندلس إلى أن بلغ جبل طارق ثم احتل طليطلة عام ١٠٨٥ م ، فبادر ملوك الطوائف بتقديم فروض التهنة إليه ! وأسبقوا عليه أو قبلوا أن يسبق على نفسه لقب « ملك المسيحيين والمسلمين » ! وما نشك في أن هذا الفتور الذي أصاب نفسية العرب يرجع — فيما يرجع إليه من أسباب — إلى كثرة عناصر الموالدين والمجناء في أوساطهم ، منذ درجوا على خطة التروّج من الأسبانيات أو التسرّي بهن . ولقد كانت هذه الخطة ظاهرة النفع في عصور الدولة الأولى ، بما أجرت في عروق العرب من دماء جديدة ، وبما نشأت من جيل متميز في مواهبه جامع لحاسن العنصرين في أخلاقه وتقكيره وجميع مقوماته . ولكن استحال كل هذا إلى مضرات بالغة في المصور المتأخرة ، إذ تقلصت روح المعصية التي اشتدت حاجة العرب إليها حين كانت جحافل الأسبانيين ترحزهم عن بلادهم حصناً بعد حصن ، وفشت روح الاستهانة بوازع الدين ، ولم يعد ثمة أثر لطموح المسلمين الأوائل ، وشدة تمسكهم لرفع لواء عقيدتهم ، بل حلت الآفة والأطاع الشخصية محل كل هذا ، واستخذت أقيال العرب وشعوبها لسيطرة ملوك الأسبان الذين هيمنوا بقوة نفوذهم على نشئون شبه الجزيرة من أطرافها . ويمكن أن نذكر أن أبا عبد الله محمد آخر ملوك بني الأحمر